الشيخ إبراهيم أبو اليقظان رائد الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب

Sheikh Ibrahim Abou Elyakdhan, a Reform Movement Leader in Oued Myzab

د, قردان الميلود*

جامعة تيسمسيلت (الجزائر) mouloudradwane@hotmail.com

د, فتوح محمود

جامعة تيسمسيلت (الجزائر) mahmoud.fettouh@gmail.com

تاريخ الارسال2021/01/20 تاريخ القبول 2021/04/29 تاريخ النشر2021/09/27

ملخص:

يعدّ الشيخ إبراهيم أبو اليقظان من أهم الشخصيات الوطنية التي تركت بصمة واضحة في تاريخ الأدب الجزائري الحديث، وفي تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، والصحافة العربية بالجزائر التي تصدت للهيمنة الاستعمارية الفرنسية، الهادفة لمسخ الشخصية الوطنية العربية الإسلامية وطمس الثقافة الجزائرية الأصيلة، وإن المقالات التي سطرها قلم الشيخ أبي اليقظان تعدّ شاهدا حيا على مواقفه الثابتة تجاه الأمة والوطن، فضلا عن كونها ثراءً معرفيا متميزا للساحة الأدبية الجزائرية.

الكلمات المتاحية: الشيخ أبو اليقظان، الصحافة،الوطن. الإصلاح، ميزاب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

Abstract:

Sheikh Ibrahim Abou Elyakdhan, is among the national figures, who left an indelible mark on the Algerian national movement history, as well as on the Arab press history in Algeria, that thwarted the French colonial hegemony aiming to metamorphose the Islamic Arab national character and obliterate the Algerian authentic culture.His essays are deemed a living proof of his determined stances towards the nation and the homeland, as well as being distinguised richness of knowledge of the Algerian literary arena.

Keywords: Sheikh Abou Elyakdhan, Press, Nation, Reform, Myzab, Algerian Muslim Scholars Association,.

مقدمة:

إنّ الباحث–الموضوعي– المتقصي لتاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهو بصدد الحديث عن أعلامها لا يمكنه إغفال شخصية مهمة تركت بصمتها الجلية ليس في تاريخ الجمعية فحسب، بل في تاريخ النهضة الأدبية والفكرية في الجزائر زمن الاستعمار الفرنسي ، وأسهمت بدور فعال في نشاط الحركة الوطنية باختلاف تياراتها، ونقصد بهذه الشخصية الشيخ إبراهيم أبا اليقظان الذي تبوأ مكانة مرموقة بين الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء

* المؤلف المرسل

المسلمين الجزائريين منذ اللحظة الأولى لتأسيسها، بيد أنّ الكثير من الباحثين يكادون يختزلون هذا الصرح الوطني الإصلاحي الذي أحيا الله به أمة كان قد أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا في تاريخ الحضارة وفي سجل الحرية والانعتاق. يكادون يختزلونها في شخص أعلام مشهورين كالشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي ومبارك الميلي والطيب العقبي والعربي التبسي وإن كنا نقرّ بفضلهم وشرف سبقهم إلّا أنه بالمقابل هناك شخصيات إصلاحية أخرى بقيت مهمشة من لدن كثير من الباحثين، لذلك وجب علينا وفق ما تقتضيه آمانة وموضوعية البحث العلمي أن نسلّط الضوء على هذه الشخصيات التي كانت فاعلا مهما في سيرورة الحركة الوطنية، ومن بين هؤلاء شخصية الشيخ إبراهيم أبي اليقظان الذي كان أحد الأعضاء المؤسسين لها، بل كان نائبا لآمين المال، وهنا تتجسد الوحدة الوطنية بين أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتسمو عن الفوارق المذهبية بوصفه إباضيا والبقية مالكيون.

من أجل هذا تحاول هذه الورقة البحثية أن تجيب على جملة من الأسئلة أهمها :

من هو الشيخ إبراهيم أبو اليقظان ؟ ومادوره في الحركة الإصلاحية والفكرية بوادي ميزاب؟ وماذا عن مواقفه من الوحدة الوطنية التي حفظها له التاريخ؟ وكيف أسهم في إفشال الفتنة المذهبية بين الإباضيين والمالكيين ؟ وماذا عن جرائده الثمانية ومطبعته العربية؟

1, الشيخ إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان:

اسمه الحقيقي: حمدي إبراهيم بن عيسى، أمّا كنيته " أبو اليقظان" فقد اقتبسها من الإمام الرستمي الخامس " أبي اليقظان محمد بن أفلح" لإعجابه الشديد بشخصيته، وشجاعته.

ولد أبو اليقظان بمدينة القرارة جنوب الجزائر يوم 29 صفر 1306هـ-20 نوفمبر 1888م، زاول تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه، وبعد أن استظهر القرآن الكريم، درس في معهدي الشيخ الحاج إبراهيم بن كاسي، والشيخ الحاج إبراهيم بن عيسى الأبريكي، ثم تتلمذ على يد قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش، ليسافر بعدها إلى تونس أين التحق بجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية ليدرس على يد أعلامها الكبار من طينة الشيخ الطاهر بن عاشور، والأستاذ عبد العزيز الثعالبي، لينضمّ فما بعد إلى الحزب الدستوري التونسي برفقة أحمد توفيق المدني، ليعود إلى وطنه الجزائر ويسهم في الحركة الوطنية والإصلاحية، سواء عن طرق الدرس والتعليم والتأليف، أو من بوابة الصحافة والمطبعة العربية[1].

2, جهود الشيخ أبي اليقظان الإصلاحية ومواقفه الوطنية:

لم يألُ أبو اليقظان جهدا في دعم الحركة الإصلاحية وتنمية الوعي الوطني، في تلك الفترة الحالكة الظلام من تاريخنا الوطني، وقد فصّل الشيخ أبو اليقظان حال الأمة الجزائرية بقوله: "لقد تسلّط على الأمة

عوامل ثلاثة، لو تسلط عامل واحد منها على أمّة كبيرة، لزعزع ركنها وهدّ بناءها، ألا وهي الجهل، والفقر، والفرقة، فالجهل أفقدها شعورها بوجودها، وكيف تذبُّ عنه، والفقر أقعدها عن العمل وشلّ أعضاءها عن الحركة، والافتراق أذاب قوّتها، و ذهب بريحها فبقيت والحالة هذه عرضة للتّلف و الاضمحلال والهلاك. وهي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المحزنة التي جرّ إليها الظلم والاستبداد "[2]

وقد تجلى إسهام الشيخ أبي اليقظان في الحركة الوطنية من خلال الجرائد والصحف التي توالى صدورها، لكن سرعان ما أُشهر في وجهها قرارات التوقيف، ومعاقبة صاحبها بعقوبات مادية أو معنوية، لا سيّما تلك التي تشمّ فيه الإدارة الاستعماريّة رائحة الإصلاح والوطنيّة، مثل صحف الشيخ أبي اليقظان التي سقطت شهيدة في ميدان المقاومة الشريفة بالكلمة الواحدة تلو الأخرى، بمجموع ثماني جرائد خلال ثماني سنوات:

01- (وادي ميزاب) 119عددا- من 1926/10/01 إلى 1929/01/18م.[3]

02- (ميزاب) عدد واحد- 1930/01/25م.

03- (المغرب) 38 عددا، من 1930/05/29 إلى 1931/03/09م.

04- (النّور) 78 عددا- من 1931/09/15 إلى 1933/05/02م.

05- (البستان) 10 أعداد- من 1933/04/27 إلى 1933/07/13م.

06- (النبراس) 6 أعداد- من 1933/07/21 إلى 1933/08/22م.

07- (الأمّة) 170 عددا- من 1933/09/08 إلى 1938/06/06م.

08- (الفرقان) 6 أعداد- من 1938/07/08 إلى 1938/08/03م.

3, مواقف أبو اليقظان الوطنية في مسائل الهوية الوطنية:

3-1. قضية التجنيس:

لم تتخلَّف صحف الشيخ إبراهيم أبو اليقظان عن الخوض في مسألة التجنيس، من خلال موقفها الثابت إزاءه، إذ رفضته رفضا مطلقا، ودعت إلى محاربة التجنيس والمتجنّسين دون هوادة، وهذا ما حملته على عاتقها جريدة الأمة[4]، التي تصدّت لكل نزعات الفرنسة والمسخ، والإدماج، فقد تناول أحد كتاب الجريدة واسمه" الفاروقي" مقالا بعنوان " زأرة من عرين" وسميائية عنوان المقال تحمل في طياته معنى التحذير والرهبة، فزئير الأسد دليل على نفاد صبره، واقتراب موعد بطشه بعدوه. تطرّق الكاتب في مقاله إلى موضوع التجنيس، وخطره على الشخصية الجزائرية العربية المسلمة، ونبّه إلى ضرورة مقارعته دعاة التجنيس أينما كانوا، وحيثما وجدوا، فهم أصل البلاء، ورأس الفساد: "... لا بدّ ثم لا بدّ من أن تسعوا وتجتهدوا في إحداث شيء يحفظ الدين والقومية، وتدعوا إلى ذلك جميع طبقات الأمة على اختلاف نحلهم، لعلّهم تجمعهم كلمة دين ووطن، ولقطع دابر المفسدين أرى أول واجب محاربةُ التجنيس والمتجنّسين، لأنهما رأس الفساد."[5]

وقد أثار هذا المقال الشديد اللهجة، ردود أفعال كثيرة بين طائفة من كتاب تلك المرحلة من تاريخ الصحافة العربية الجزائرية، ومن بين الذين أيّدوا ما ذهب إليه الفاروقي في مقاله الشيخ أبو العباس أحمد بن الهاشمي التيجاني[6]، والذي حبّر مقالا اختار له الآية الكريمة عنوانا {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} ﴿٣٨﴾ سورة محمد.

وهو في ذلك يبرئ ذمته، واضعا القضية على قسطاس الدين، فيقول" أنّ دعاة التجنيس أينما توجهوا، وأينما حلّوا وارتحلوا، وجدوا الآيات المحكمات سادّةً لكل سبيل في وجوههم، اللهم إلا سبيل الاختيار بين أحد الشّقّين وإحدى الشيعتين"[7]

2-3, الوحدة الوطنية:

وعلى نهج ابن باديس سار الشيخ أبو اليقظان في الدّعوة إلى الحفاظ على الوحدة الوطنيّة، والتنبُّه للمكائد والدسائس التي تُحاك في الظلام، وتُحركها أيدٍ خفيّة كدمى "القراقوز"، يدبّج الشيخ مقالا حول حوادث قسنطينة أو ما أصطلح على تسميّتها بحادثة الجامع الأخضر[8] بقسنطينة، بين اليهود و المسلمين والّتي سقط فيها قتلى من الجانبين، غير أنّ الغلبة كانت حليفة الجزائريين، وبعد هذه الأحداث الّتي أبان فيها الجزائريون على معدن أصالتهم، سعت طائفة من اليهود للإيقاع بين الجزائريين فما بينهم، فروّجوا لإشاعة مغرضة، مفادها أنّ التجار الإباضين في قسنطينة يحتكرون التّجارة، ومن ثمّ يفرضون الأسعار الفاحشة على هواهم، وشنّوا حملة لمقاطعتهم، وكاد ينساق وراءها بعض الجزائريين المالكيين، لولا موقف بعض الوطنيين المخلصين الذين كشفوا عن الجهة التي تقف وراء هذه المؤامرة، والحقيقة أنّ هذه الفتنة النّتنة واضحة للعيان إلّا على ذوي النفوس المريضة، فكلمة جزائري مسلم جامعة مانعة، لا حاجة للتذكير أنّ هذا إباضي وذاك مالكي، فالجزائر لم تعرف شرّ الطائفيّة على مرّ عصورها، فقد عاش المالكي في حسن تجاور مع أخيه الإباضي يتقاسمان الآلام والآمال، في مثال نادر للتعايش المذهبي، وخير دليل على ذلك الشيخ أبو اليقظان نفسه المقال فقد كان من الرّعيل الأول الذي وضع اللّبنة الأولى لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين.يقول أبو اليقظان كاشفا خيوط المؤامرة، محّذراً من عواقبها الوخيمة في مقال نُشر بجريدة الأمّة بعنوان" اليهود يُبخرون بالفلفل": "حذار حذار أيُّها المسلمون من استغلال اليهود لحسن نيّتكم، ولشدّة حاجتكم، واختلاف منازعكم، فيضرب بعضكم بعضا، ويركب بعضكم رقاب بعض، فيرقص اليهود على مصائبكم ومناحاتكم سرورا وطربا، ويضحكوا شماتة وسخريّة على بلهكم وغفلتكم.

نحن على يقين أنّ اليهود، لا سيّما يهود قسنطينة منهم، لن يهدأ لهم بال، ويلّذ لهم عيش، إلّا عندما يرونكم تُخربون بيوتكم بأيديكم، مبدّدي الشمل، مفرّقي الكلمة، مهدّدي الشرف، مُداسي الكرامة، ولبلوغهم هذه الغاية السافلة تراهم هذه الأيام يُبخرون بين المسلمين بالفلفل! وسيسمع العالم الإسلامي ما يتصاعد من مسلمي الجزائر من الحكّة والسعال إذا لم يفتحوا عيونهم للمؤامرات الّتي تُدسُّ لهم في طيِّ الخفاء، ويتداركوا أمرهم بكلّ صدق وإخلاص وصفاء."[9]

يقف أبو اليقظان بقلمه أمام هذه المؤامرات المدسوسة، الّتي تسعى إلى تقسيم الأمّة الجزائريّة إلى شيع وطوائف، يضرب بعضُها رقاب بعض، وبمثل هذه المواقف استطاع الشعب الجزائري وأد هذه الفتن في مهدها وإخمادها، ولم تنطلّ مكيدة اليهود على الشعب الجزائري، بفضل فطنة ويقظة أبناءه العاملين المصلحين. في مختلف ربوع الوطن كما هو الشأن مع الكاتب الشيخ محمد السعيد الزاهري الذي دبّج مقالا في قمة الوعي الوطني، ردّا على مقال نشرته جريدة الليالي[10]تحت عنوان" أسطورة إخواننا في الدّين"، يدعو فيه صاحب المقال إلى إيقاظ الفتنة، وزرع الفوضى في أوساط الأمّة الجزائريّة، بالعزف على وتر الطائفيّة بين المالكيين وإخوانهم الإباضين، ولم يجد الشيخ السعيد الزاهري بُدّا من أن ينبري للردّ عليه بمقال عنوانه "صرخة غضبان في وجه زعفان، حول أسطورة إخواننا في الدين"، يقول الزاهري وهو ممن لا تُعجزهم الكلّمة، ولا تخونهم المعنى، ولا تعوزهم الحُجّة:" نشرت جريدة الليالي الانتقاديّة مقالا كلّه فتنة وانتهاك للحقيقة والواقع، فضلا عن كونه طعنا صريحا وتهجُّما قبيحا غير شريف على بني ميزاب "إخواننا في الدّين" وإخواننا في الوطن، واللّغة والتاريخ، تربطنا بهم جميع الرّوابط والصلات"[11]. ويواصل الزاهري مقاله مصحّحا لخصمه أغلاطا تاريخيّة، يكون قد وقع فيها، وخلطا لمفاهيم واضحة بيّنة قد تخبّط فيها صاحب الليالي، ولو أقسم صاحب الليالي هذا بأقدس مقدّس لديه، لما أفلح في تبرئة ساحة المستعمر الفرنسي من التُّهم الّتي كالها لإخواننا الإباضين، الّتي يكون قد أوحى له بها، وتكفّل هو بنقلها على جريدته أو لنقل ترجمة معانيها، يقول الزاهري:" من هم المستعمِرون؟ حيث كان "زعفان" قد اتّهم الإباضيّة الميزابين بأنّهم مُستعمِرون.

أمّا أنّ إخواننا الإباضين مُستعمِرون فهو مُنكرٌ من القول وزورٌ، وكيف نصفهم بالمستعمِرين وهم منّا وإلينا؟ وكيف نسمّيهم مُستعمِرين وهم ليس لهم بنوك ومصارف ماليّة كبرى ولا شركة"ترام" ولا غير ذلك من مشاريع الاستعمار والمالّيّة العليا، وغاية ما هنالك أنّهم تجار من الدّرجة الثالثة والدّرجة الرابعة، يكسبون أرزاقهم وأرزاق أطفالهم وأهليهم من هذا الوجه الحلال، فإذا كان فيهم من كسب ما نسميه مالا كثيرا بعرق الجبين وكدِّ اليمين، فإنّ كثيرا منهم قد ضاعت أرزاقهم في السنوات الثلاث الأخيرة، قد أكلها إخوانهم وعملاؤهم من المالكية، وما أنت بواجد في الجزائر من أقصاها إلى أقصاها، ولا تاجرا واحداً من الميزابين إلّا وقد أكله إخوانه المالكية مئات الآلاف، ومع ذلك فبنو ميزاب يقابلون كل ذلك بالصّبر الجميل، ولا يحملون حقداً على إخوانهم الّذين أكلوا أموالهم، بل يدعون الله أن يفرّج عليهم هذه الأزمة الخانقة الّتي أهلكت الزرع والضرع."[12]

وبعد أن عدّد الكاتب مناقب إخواننا الميزابين، ومسارعتهم للخيرات، ومشاركتهم في الحركة الإصلاحيّة، بالأموال والأقلام، يوجّه سهما نافذا لصاحب جريدة الليالي، فيصيبه في مقتل، يقول الزاهري:" وماذا يقول "زعفان" هل عاون مدرسة من مدارسهم أو مشروعا آخر من مشاريعهم بفرنك واحد ؟ حتّى يتسنّى له أن يقول فيهم ما ليس فيهم حقّا كان أو باطلا."[13]

4, مفهوم الوطنية من منظور الشيخ إبراهيم أبي اليقظان:

ومادمنا نتحدّث عن الوحدة الوطنيّة، نُعرّج على مفهوم الوطنيّة الحقّة كما يراها أبو اليقظان، فهل هيّ مجرّد شعارات برّاقة تلوح في الأفق كلّما حلّ موسم الانتخابات وترحل برحيله، أم أنّها شعور مُتّقدٌ يذوب فيه الفرد في مصلحة الجماعة، ومصلحة الوطن أولى من مصالحه الآنيّة، فليس من الوطنيّة في شيء تَشْييدُ الملاهي والمراقص، وليس من الوطنيّة في شيء قضاء وقت الشباب بين المخامر والمقامر والمقاهي، بل الوطنيّة هي العمل —كلّ واحد حسب موقعه في الحياة– على رُقيّه وازدهاره، الوطنيّة الحقّة تتجلّى مظاهرها في السلوك الحضّاري من خلال الحفاظ على الممتلكات العامة، في احترام القوانين والنُّظم، و في الشعور بالمسؤولية اتجاه الوطن أيضا، يقول أبو اليقظان:"...يُشيّدون المراقص فيقولون لعمارة الوطن، يفتحون المقامر فيزعمون: أنّها لإعلان شأن الوطن، يعلنون على الخمور فينادون أن شجّعوا بضائع الوطن، يستجلبون أنواع الملاهي والمقاصف، فيُموّهون أنّ ذلك لتمدين الوطن، يُنظّمون حفلات الرّقص والغناء فيختلط الحابل بالنّابل، فيُعلنون بلا خجل إنّ ما يتجمّع منها لفائدة المشروع الخيري الوطني، وليتها لم تزن ولم تتصدّق، كأنّما الوطن فندق متداعي الجدران، والوطنيّة فؤوس ومعاول تُقتنى لهدمه واكتساحه."[14]

يُصحّح أبو اليقظان المفهوم الخاطئ للوطنيّة، التي أفرغها صنف من النّاس عن جهل أو قصد من مضمونها الخالص النّبيل، فصيّروها محصورة في ارتداء هندام بعينه، أو تنطُّعٍ بكلمات جوفاء، أو ارتكاب موبقات وشرور بداعي نشر الوطنيّة والحفاظ على الوطن، وليت شعري إن كانوا يدرون ما صنعوا بالوطن والوطنيّة الحقّة، يُحدّد الكاتب معنى الوطنيّة الحقّة فيقول:" ليست الوطنية الجهل بتاريخ البلاد، ومجد البلاد، و عظماء البلاد، ولسان البلاد، و دين البلاد، و آداب البلاد، ومشخصات البلاد.ليست الوطنية التفاخر بتاريخ الغير و مجده، و عظمائه و لسانه، ودينه و آدابه، ليست الوطنية في تعديل القوام وتحسين الهندام و الجري وراء القصف و المجون، إنما الوطنية شرارة نارية يقذفها الله في النفس فيلتهب بها الدماغ و ترسل أشعة نورها إلى القلب فتحرك حرارتها الأعضاء، وتنير تلك الأشعة الساطعة أمامها سبيل العمل. إنما الوطنية الحقّة أن يسعى الإنسان قدر جهده لجلب الخير العميم لوطنه و دفع الضر عنه بمقتضى العقل و الحكمة و الشرع و القانون.إن الوطنية الحقة أن تفنى في مصلحة العموم مصلحة الذات و يضحي بهذه لأجل تلك.إن الوطنية الحقة أن يشقى الإنسان ليسعد وطنه، ويذِلّ ليعز، و يفقرَ ليستغنى، و يموت ليحيى، كما فعل مصطفى كامل، و فريد، و زغلول ، و الباروني، و الثعالبي، و شكيب و أضرابهم.

تلك هي الوطنية الحقّة التي على أساسها تُشيَّد دعائم العمران، إذا نُفخ روحها في الشعب، و غُذي بها جسم الأمة، و ما عداها فدعاوى فارغة، لاحظّ لها من الوطنية إلا ما للزبد من المنفعة.

ليس الوطني الحقيقي من يُظهر رأسه عند الرخاء، وإذا جدّ الجد اختفى و توارى عن الأعين، فإنّ هذا النوع من الوطنية تشاركه حتى الأرانب، و لكنّ الوطني الحقيقي كالأخ الصديق، إنما تظهر صداقته ومودته عند البلاء، و المحن، و المضائق، هذا نحو أخيه العزيز، وذلك نحو وطنه المحبوب"[15]

ويضرب الكاتب مثالا للوطنيّة الزائفة، التي يعتقد البعض أنّها مُجرّد مظاهر، أومجرّد خُطب رنّانة، وفَاتَهم أنّ الوطنيّة مَهرُها غالٍ، لاسيّما في زمن الاستعمار الفرنسي، فمن تثبت في حقّه هذه التُّهمة، فمصيره بين الاعتقال والتشريد والنفي والقتل، يقول أبو اليقظان عن الوطنيّين الزائفين الذين ضلّوا وأضلّوا :" يَبرُز أحدنا في الميدان بداعي الوطنية، فإذا مُسّ بمساك في نفسه، أو عرضه، أو ماله، تَخيّل أن القيامة قد قامت، فتوارى عن الأعين، و انزوى في كسر بيته كأنه يحسبُ الوطنية تمرا يأكله، أو رغيفا يقتاتُ به، و إذا برز إلى الميدان و لم يعتقد أنّه لا بدّ في مبارزته من مصائب ومحن فلماذا برز؟

و قد كان الأحرى به أن يُقاسم أهله أشغال البيت، من الكنس و الطبخ و تربية أولاده، وهذا أولى من أن يكون فارّا من الميدان، ذا وطنية فرّارة، فيفشل و يفشل به غيره، فيكون السبب فيما يحل بالشّعب من الفشل و الانهزام، إنّ لنا قرآنا، و سنّة، و آثارا، و تاريخا، و عبرا، تُرينا كيف يجب الثّبات و الصّبر على المكاره، و الذّود عن الحوض، و الحِمى، بكل صدق و إخلاص،و بهذا نحرز على لقب الوطنية الحقة"[16].

5, فضح أساليب الاستعمار الفرنسي ومكائده:

ومثال هذا ما كتبه الشيخ أبو اليقظان عن ديمقراطيّة فرنسا، ومدنيّتها في القرن العشرين، والتي تجلّت في أبهى صورها التي تبرّعت بأفضالها على الجزائريين، فيقول على لسان المستعمِر الفرنسي في أسلوب وإن بدا في الظاهر أنّه للترفيه والتنكيت، فإنّه يفيض حسرة وألما في أعماقه،:" بعثنا الله إليكم لنبدّل ذلّكم عزّا، ولكن بصبّ كؤوس الهوان على رؤوسكم، وفقركم غنى، ولكن بابتزاز أراضيكم ومقدّرات بلادكم، وترك مئات الآلاف يلتحفون الغبراء، وجهلكم علما، ولكن بإغلاق المدارس في وجوه أبنائكم، وترك 90 ألف نسمة يذرعون الطرقات، وعبوديّتكم حرية، ولكن بإحاطتكم بأسلاك شائكة من قيود القوانين الاستثنائية، نحن نتعهّد باحترام ديانتكم، ولكن بمضايقة رجال الدّين، وإطلاق العنان للمبشّرين يجوسون خلال الديار، ويأخذون طريقهم إلى القلوب لابتزاز العقائد منها، نحن نحترم آدابكم وثقافتكم، ولكن بمطاردة اللغة العربيّة، واعتبارها وهي لسانكم لغة أجنبية كلغة الألمان والطليان، نحن نعطيكم الحرية التّامة في انتخاب نوابكم، ولا نتدخّل فما بينكم أبدا إلّا بإطلاق المسدّسات فقط، وقتل وجرح النّاخبين فحسب !!.

ذوق سليم، ومنطق مستقيم، وعدل عميم، ومنهاج قويم، جاءتنا به أوروبا، لتخرجنا من الظلمات إلى النّور!!.. لتملي علينا دروس الحضارة والتمدين، لتُلقّننا مبادئ التثقيف والتهذيب، ما شاء الله لا قوة إلّا بالله."[17]

فالنّص ينضحُ حسرة ومرارة، من مفارقات الاستعمار الفرنسي بين ما يدّعيه من حريّة وديمقراطية، وبين ما يقوم به على أرض الواقع من تقتيل وتنكيل وتضييق على الحريّة الدينيّة والمدنية في الجزائر.

وقبل هذا كتب أبو اليقظان مقالا يجد فيه القارئ شيئا من المتعة والطرافة بمناسبة حديثه عن مصطلح "السياسة"، الذي أضحى تُهمة تزجُّ بصاحبها في غياهب السجن بمجرّد التلفّظ بها، ناهيك عن تعاطيها، لذلك أخذ أبو اليقظان عهدا على نفسه أن لا ينطق بها أبدا، وإن ألجأته الأحوال والظروف لذلك فإنّه يستعيض عن

التصريح باسمها إلى ترجمة معناها، يقول الكاتب في أسلوب ممتع شيّق:" لا أنطق بها ناسيا، ولا أتعمّده، ولا أظنّه، ولا أشكّ فيه، ولا أتوهّمه، ولا أحدّث به نفسي، ولا يخطر ببالي، ولا يقع في هاجسي ولا خيالي، وإن أُرغمتُ و إن أُجبرتُ، وألجأتني الضرورة–لا قدّر الله، والله يا لطيف على النطق به– فإنّني أستبدله بال....بو...ليتيك، إذ أنّ هذا اللفظ معناه الخاص في دائرته الضيّقة المحدودة، وحدّه الفاصل بين ما هو من السياسة– أستغفر الله وأتوب إليه، وأقلع عن هذه الزّلة– وما ليس منها."[18]

ومن نماذج سخريّة الشيخ أبي اليقظان ما جاء في مقال له بعنوان " أعجوبة آخر الزمان" تعرّض فيه الكاتب بالسخريّة اللاذعة للمشاركين في مهزلة الانتخابات، المحسومة نتائجها سلفا، وقد صوّر أبو اليقظان المنتخَبين والمنتَخبين في صورة فواكه وبقوليات، تُذكّرنا بذلك التصوير الكاريكاتوري الذي رسمه الجاحظ لخصمه أحمد بن عبد الوهاب في رسالة التربيع والتدوير، يقول أبو اليقظان ساخرا في قالب قصصي مُمتع:" بما أنّ السعادة عند علماء اللغة والفلسفة هي الضّحك، فقد رأينا أن نُتحف القرّاء بقصّة طريفة في القرن العشرين، قرن النّور والحضارة والتّمدّن والحريّة، وهي أنّ البقول والفواكه اشتركت مع الإنسان في الحقوق، ودخلت معه في ميدان الانتخاب، فقد انتخب الباذنجان والفلفل والطماطم والبصل والثوم والقرع، مع مشاركة مادة القطران معهم، وانتخبوا السيّدة (كبوية) رئيسا، فقد أصابوا، إذ هو كبير الجسم مُجوّفه، مُكوّر الشكل، فارغ الفؤاد، فنُهنّئُه بهذا الفوز، ونتمنّى له الانتشار، ونقول له بملء أفواهنا في بوق إسرافيل مبروك."[19]

تتجلّى السخريّة والتنكيت في هذه القصّة الرامزة، التي اختار لها شخصية (الكبوية) رئيسا لجمهور الخضر والفواكه، وربّما اختيار الكاتب للكبوية لم يكن عفويا، ذلك أنّ الكبوية تتمدّد في نموّها وتنحرف في شكلها، وهذا تعريض واضح بأولئك الذين تقلّدوا مناصب تمثيليّة فانحرفوا بسلوكهم وتمدّدت بطونهم. فكان لابدّ من إعلان خبر ترؤُس هؤلاء لجميع النّاس، ولم يجد الكاتب وسيلة لذلك أفضل من بوق إسرافيل.وهنا تظهر سخريّة الكاتب حزينة مريرة، بسبب توليّة المناصب لغير أهلها خدمة للاستعمار الفرنسي ومصالحه.

حمل الشيخ أبو اليقظان هم إتحاد أبناء الشعب تحت مكوّن سياسي واحد يضمن لهم مركز قوة في مجابهة الاستعمار الفرنسي،وذلك عن طريق تأسيس حزب وطني جزائري، يجمع شتات الجزائريين، غير أنّ الخلاف الفكري والسياسي فضلا عن الدسائس الاستعمارية التي عملت دورها لإفشال مثل هذا التكتل الوطني حال دون تأسيس حزب وطني جامع، يقول الشيخ عن الأمّة الجزائريّة مشبّها الصراع الدائر بين الوطنيّين المصلحين وبين بعض الخانعين الخائفين، بالصّراع الدائر بين الكريات الحمراء والكريّات البيضاء في جسم الإنسان :"..الأولى تدافع الثّانية أملا في حياته، والثانيّة تهاجم الأولى تمنيّا في موته.....فإن كانت الأولى تفاءلنا للجسد بالحياة، وإن كانت الثانية تشاءمنا له بالموت."[20].

ويصف الشيخ أبو اليقظان المحن التي حلّت بالأمّة الجزائريّة، فوحدتها بعد فرقة وشتات، يقول الكاتب:"..لقد كانت الأمّة الجزائرية كعربات القطار متناثرة هنا وهناك، ولكن عصفت عليها الحوادث الهوجاء في ظروف مختلفة فدفعتها إلى بعضها."[21]

6, القضية الفلسطينة:

نالت القضية الفلسطينة اهتماما كبيرا من كتابات الشيخ أبي اليقظان، وأفرد لها مساحات واسعة لنقاش والتحليل على صفحات جرائده، سواء بقلمه وباسمه أو بأسماء مستعارة، أو من خلال بعض الكتاب الذين كانوا يُسهمون بمقالات يتكفل أبو اليقظان بنشرها في جرائده.

ففي جريدة الأمّة مثلا نجد مقالا بعنوان "فلسطين الدّاميّة تنتصر لنفسها حين خذلها العالم"، تحدّث فيه الكاتب عن التواطؤ المفضوح بين العصابات الصهيونيّة، وبين سلطات الانتداب البريطاني، التي لم يكفها أن نكثت بوعدها الذي قطعته عن نفسها برفع الحماية عن فلسطين، مقابل أن يقاتل أبناءها إلى جانبها في أتون الحرب العالميّة الأولى، بل عاثت في الشعب الفلسطيني تقتيلا وتشريدا وتهجيرا من أرضه، يصف الكاتب قدسيّة فلسطين مهبط الوحي والرّسالات السّماوية، التي لم يُراع المستعمرون حرمتها وجلال مكانتها يقول الشيخ أبو اليقظان:" لئن اضطرب العالم وهاج وماج، فما ينبغي لفلسطين- وهي مهبط الوحي ومقرّ رسل السّلام من الله إلى سائر الأنام- أن تُمسّ بسوء أو تصاب بأذى.

لئن اتّجهت عيون الاستعمار النّارية إلى بلاد الله الآمنة المطمئنّة فأقضّت مضجعها، وأذاقتها لباس الجوع والخوف، فما كان أجدرها أن تُغمض جفنها عن مبعث أنوار الهداية، وجامعة السلام الأمميّة، ومهد الأديان السّماويّة، أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومقرّ البراق، ومعراج سيّد الوجود من الأرض إلى السماء....ولكن للاستعمار — ويا للأسف- سياسة وقحةً، لا تعرف شيئا من معاني الحياء، ولا تقيم وزنا لقدسيّة الدّين، ولا تفهم أيّ قيمة في الوجود إلّا المادة."[22]

ثمّ يُعرّج الكاتب على الخديعة التي أُستدرج إليها العرب عن طريق الشريف حسين، وذلك من خلال وعد أعطته له بريطانيا بإنشاء إمبراطوريّة عربيّة خالصة، مقابل أن يُقاتل الأتراك ويُخرجهم من البلاد العربيّة التي كانت تحت سلطتهم، وقد كُلّلت الخطّة بنجاح باهر بالنسبة للبريطانيين، وجرّ العرب أذيال الهزيمة بعد أن اقتتل المسلمون فما بينهم، فضعفت شوكة العرب وشوكة الأتراك، فاستفرد المستعمرون بهم، فلا الإمبراطورية العربية الكبرى أُسِست، ولا الخلافة الإسلامية العثمانية بقت، بل أكثر من ذلك اقتطعت سويداء قلب العرب والمسلمين فلسطين، وجعلوها وطنا قوميا لليهود، يقول الكاتب :" ففي الوقت الذي تقطع على نفسها عهدا، يجعلها مع شقيقاتها إمبراطورية عربيّة، مكافأة لشريف حسين على ما قام به في وجه دولته تركيا أيّام محنتها، في هذا الوقت نفسه عينُه كانت تقطع على نفسها عهدا آخر، يجعلها وطنا قوميّا لبلفور[23] وقومه، تحت وصايتها، بموجب عقد من جمعيّة الأمم"[24].

ويعود الكاتب إلى الموروث الديني، فيستدعي منه شخصيّة النبي يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت، ويعقد مقارنة بين حوت يونس عليه السلام، والقرش الصهيوني المفترس، يقول الكاتب:" فكانت فلسطين كنبيِّها يونس بن متّى حين أبِق، التقمها حوت إسرائيل، ثمّ التقم هذا الحوت الحوت البريطاني، إلّا أنّ النّبي يونس عليه السّلام

دام في بطن الحوت أربعين يوما، على ما روته الأخبار، وفلسطين مرّ عليها نيّف وعشرون عاما، وهي ما زالت ولم تزل تُعاني ما لم يُعانه البشر من صنوف الفتنة وضروب البلاء، وكأنّ الله تعالى لما اختار فلسطين وجعلها مهبط وحيه ومقرّ أنبيائه، جعل كذلك عذابها مضاعفا، وشقاءها مزدوجا، فكان الاستعمار استعمارين: استعمار اليهود واستعمار الانكليز."[25]

ويختمُ الكاتب مقاله، بالإشارة إلى التغيّر الحاصل في الوعي الفلسطيني، الذي أيقن خطأه عندما طمع في إحسان المستعمِر، وفي عطف الأشقاء، فاعتمد على نفسه، وأصبحت بطولات الشعب الفلسطيني مثار إعجاب أحرار العالم، يقول الكاتب:" ولقد أدركت فلسطين غلطتها، فقامت تُجاهد جهاد المستميت، وتناضل لاسترجاع عزّتها وكرامتها، بما أوجب لها الإكبار والإعجاب والعطف من العالم الإسلامي. ولعلّه يدرك واجبه نحوها كما أدركت واجبها نحوه، فيمدّ إليها يد العون والمساعدة لاسترجاع ما ضاع لها من حقّ، كما مدّت أيدي المساعدة نحو خصومها على تقرير الباطل وتأييد العدوان."[26]

ولا نبرح جريدة الأمة حتى نعثر على مقال بعنوان " انكلترا تطفئ حريق فلسطين بأنابيب البترول"، يتعرّض فيه الكاتب بالنّقد اللاذع لسياسة المستعمر البريطاني القائمة على صبّ الزيت على النّار، في معالجة انتفاضة الشعب الفلسطيني المدافع عن أرضه ومقدّساته، يقول الكاتب:" غمرتنا الحوادث المحليّة في هذه الفترة، فأشغلتنا عن سكب دمعة حارّة عن أختنا الشقيقة "فلسطين"، التي يُنزل بها الاستعمار البريطاني في هذا العصر عصر المدنيّة والنور، ما كان يُنزله الاستعمار الاسبانيّ بفردوس الإسلام المفقود " الأندلس" وتلك العصور المظلمة.

اصطدم رأس انجلترا بصخرة فلسطين المقدّسة فارتجّ، ففقدت رشدها واختلّ توازنها، فأخذت تفعل في فلسطين ما يفعل المجنون في المارستان[27]، ولكنّ هذا يُهلك نفسه فقط، وتلك تُهلك معها أمّة كاملةً، فمهما بلغ المجنون في جنونه فلا يعدو أن يُطفئ حريقًا ألهبه هو نفسه، بصبّ برميل من البترول عليه على أمل إطفائه، ذلك عين ما فعلته وتفعله انجلترا في فلسطين اليوم !."[28]

ويعدّد الكاتب جرائم المستعمِر البريطاني ضدّ الشعب الفلسطيني، من تقتيل وتشريد، ونفي، وهدم للمنازل على رؤوس أهلها، دون أدنى اعتبار لمبادئ الحرب، ولا للقيّم الإنسانيّة،:" حلّت المجلس الإسلامي الأعلى، وعزلت رئيسه الجليل سماحة " أمين بك الحسيني"[29]، وحاصرته في المسجد الأقصى بما اضطرّه أن يهاجر منها إلى سوريا، ليمكنه أن يواصل دفاعه المجيد عن البلاد، صادرت أموال اللجنة العربيّة، ومنعت كلّ مورد لها، وقطعت وسائل المواصلات عن أبناء فلسطين، وهكذا تفنّنت انجلترا في ضروب التنكيل والتّعذيب لأهل فلسطين، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بدون أن تقرأ لأفاعيلها حسابا ولا عقابا....فلتمعِن انجلترا فإنّها بقدر إمعانها فيه تُسارع الخطى إلى حتفها، وبقدر عتوّها تجعل من ضعف العرب قوّة، ومن تشتّتهم وحدة، ومن تَعاديهم صداقة، ومن عزلتهم حصانة."[30]

وبمناسبة حديثه عن سياسة الكيان الصهيوني التوسعيّة، يلجأ أبو اليقظان مرّة أخرى للتشبيه حتى يُوضّح للقارئ صورة هذا العدو المستعمِر فيقول:" كانت فلسطين كنبيّها يونس بن متّى حين أبق، التقمها حوت اسرائيل، ثمّ

التقم هذا الحوت الحوت البريطاني، إلّا أنّ النّبي يونس عليه السلام دام في بطن الحوت أربعين يوما، على ما روته الأخبار، وفلسطين مرّ عليها نيّف وعشرون عاما، وهي مازالت ولم تزل تعاني ما لم يعانه البشر من صنوف الفتنة وضروب البلاء."[31]

إنّ القارئ لمختلف مقالات الشيخ إبراهيم أبي اليقظان، يقف على حضور البعد الإصلاحي والوطني في كتاباته الصحفية، وعن وعيه العميق لما يجري في الساحة الوطنية والدولية من مخططات استعمارية تهدف إلى تفتيت الوحدة الوطنية وبسط نفوذ الهيمنة الكولونيالية العالمية على مختلف أقطار العالم الإسلامي كما هو الحال مع الاستعمار الانجليزي لفلسطين الذي قدمها لقمة سائغة للعصابات الصهيونية. فضلا عن كونها- المقالات- سجلا تاريخيا ورافدا مهما من روافد الأدب الجزائري الحديث.

هوامش الدراسة:

[1] – لمزيد من التفصيل ينظر: محمد بن أحمد جهلان: قضايا الإصلاح الاجتماعي في مقالات جريدة الأمة لأبي اليقظان 1934-1938-جمعية التراث- غرداية- الجزائر-1434هـ/2013م- ص 60/59/58/57.

[2] – أبو اليقظان: شعور الأمة نائم- فماذا ينبهه – جريدة واد ميزاب- عدد42 . 29 محرم 1346هـ- 29 جويلية 1927.

[3] – محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ط.02، ألفا ديزاين، الجزائر، 1427هـ/2006م،: ص 72/ 252/181/170/155/118/101/79.

[4] – الأمة (1933- 1938)، أشهر صحف الشيخ أبي اليقظان، وأغزرها مادة، وأطولها عمرا. ينظر: محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847إلى 1954، مرجع سابق، ص 181.

[5] – الفاروقي: زأرة من عرين، الأمة، العدد 78- 1936/06/09م.

[6] – أحمد التيجاني، مؤسس جمعية القيم بالجزائر، وهو أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، استقر بالرباط ثم مالبثت أن نفته السلطات الاستعمارية إلى "آسفي" سنة 1936 ثم إلى مراكش بعد ذلك، نشر مقالات عدّة في كل من الشهاب والإصلاح والبصائر. ينظر:"جمعية القيم...قصة أول حركة إسلامية بعد الاستقلال- جريدة الشروق اليومي- العدد 3956- 04جمادى الأولى 1434 / 16 مارس 2013.

[7] – الأمة: العدد 81- 1936/06/30م.

[8] – ينظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج.03، ط.04، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ، ص 51/50/49/48.

[9] – الأمة: العدد 08- 1934/11/06م.

[10] – صدرت مابين (1936-1937)، جريدة انتقادية فكاهيّة ، مديرها ومحرّرها علي بن سعد.ينظر: محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954- مرجع سابق ص 227/221.

[11] – الأمّة: العدد 80 – 1936/06/23م.

[12] – المصدر نفسه.

[13] – المصدر نفسه.

[14] – وادي ميزاب: العدد 52- 1927/10/07م.

[15] – المصدر نفسه.

[16] – المصدر نفسه.

[17] – لكم الحرية التّامة في الانتخاب ولكن تحت طلقات المسدّسات وبين أزيز الرّصاص: جريدة الأمّة: العدد 155- 1938/02/22م.

[18] – أعوذ بالله من السياسة: البستان: العدد 06- 1933/06/06م.

[19] – الأمّة: العدد 21- 1935/02/19م.

[20] – الأمة: العدد 03– مصدر سابق.

[21] – الأمّة: العدد 03– مصدر سابق.

[22] – الأمّة: العدد 78– 1936/06/09م. المقال من دون إمضاء.

[23] – وزير خارجية بريطانيا.

[24] – الأمّة: العدد 78 مصدر سابق.

[25] – المصدر نفسه.

[26] – المصدر نفسه.

[27] – المارستان: المصحّة أو المستشفى.

[28] – الأمّة: العدد 141– 1937/10/16م.المقال من دون إمضاء.

[29] – أمين الحسيني: مفتي فلسطين وحامي حماها.

[30] – الأمّة: العدد 141– المصدر نفسه.

[31] – الأمّة: العدد 78– 1936/06/09م.

قائمة المصادر والمراجع:

–أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج.03، ط.04، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.

–محمد بن أحمد جهلان: قضايا الإصلاح الاجتماعي في مقالات جريدة الأمة لأبي اليقظان 1934–1938– جمعية التراث، غرداية، الجزائر،1434هـ/2013م.

– محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائريّة من 1847 إلى 1954، ط.02، ألفا ديزاين، الجزائر، 1427هـ/2006م

–جريدة الأمة: العدد 08– 1934/11/06م.

– جريدةالأمّة: العدد 21– 1935/02/19م.

– جريدة الأمّة: العدد 78– 1936/06/09م.

– جريدة الأمّة: العدد 80 – 1936/06/23م.

– جريدة الأمة: العدد 81– 1936/06/30م.

– جريدة الأمّة: العدد 141– 1937/10/16م.ا

– جريدة الأمّة: العدد 155– 1938/02/22م.

– البستان: العدد 06– 1933/06/06م.

– الشروق اليومي، العدد 3956– 04جمادى الأولى 1434/ 16مارس 2013م.

– واد ميزاب، عدد42 . 29 محرم 1346هـ– 29 جويلية 1927.

– وادي ميزاب: العدد 52– 1927/10/07م.